أعلام الجزائر:
حمدان بن عثمان خوجة
المواقف السياسية والقضية الوطنية

أ. مراد بوعباش
(المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر)

مقدمة:

يعتبر البحث في التاريخ الجزائري في نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من أهم البحوث التي أبرزت مدى الانتكاسة التي آلت إليها الجزائر من جراء الغزو الذي شهدته وما تبعه من تحطيم للقيم الإسلامية الذي استهدفه الاستعمار منذ الوهلة الأولى من دخوله أرض الجزائر. غير أنها أبرزت في الوقت ذاته رد فعل الجزائريين الرافض لهذا الواقع المفروض الذي جسّده فعل المقاومة؛ ذلك أنها واجهته بما أتيح لها من وسائل وإمكانات فاتخذت شكلين مختلفين من حيث الأداة:

- المقاومة المسلحة: وهو الطابع الذي مثلته مقاومة الأمير عبد القادر في الغرب والذي استطاع تكوين دولة بجيشها وإدارتها، وكذلك ثورة الحاج أحمد باي في الشرق وما تلاها من انتفاضات ومقاومة للوجود الفرنسي
- المقاومة السياسية التي ظهرت مع بداية القرن العشرين مع حركة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المقاومة السياسية والفكرية للوجود الاستعماري لم تكن وليدة النهضة الفكرية كما يرى العديد من الباحثين بل زامنت دخول فرنسا إلى الجزائر عام 1830 بفضل شخصيات جزائرية وعت ضرورة رفض الاستعمار وحاربته منذ اللحظات الأولى.

ومن أهم هذه الشخصيات التي أسهمت في تفعيل هذه المقاومة حمدان بن عثمان خوجة الذي يعدّ من المقاومين الذين لم يحظوا بعناية كافية من قبل الدارسين فكان بهذا إما منسيا أو مظلوما على حدّ تعبير العربي الزبيري الذي أكد "أن الشخصيات المنسية في تاريخنا كثيرة والمظلومة أكثر وعلينا أن نعيد تأهيل كل مشوه، وننفض الغبار عن كل منسي حتى نسلط الأضواء على الماضي"(1).

1- حياة حمدان خوجة :

يعتبر حمدان خوجة من أهم الشخصيات السياسية التي أثرت في الحياة الوطنية للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ويعود أصله إلى كونه كرغلي أي من أب تركي وأم جزائرية وهو الذي أكده بقوله: "أنا الكرغلي بالذات كنت مستشارا في حكومة الداي أن والدي لم يكن من الحضر الأندلسيين"(2) . ولد سنة 1773 للميلاد بالجزائر العاصمة(3)، وترعرع فيها وهو ينسب إلى حضر الجزائر* وكان ينتمي إلى أسرة جزائرية عريقة كانت تملك الأراضي الشاسعة والمحلات التجارية في مختلف أنحاء العاصمة(4) .

ساعدت الظروف الاجتماعية حمدان خوجة على التعليم(5)، فقد كان أبوه من فقهاء الجزائر وأمينا عاما للأيالة وكان المشرف على الحسابات الإدارية وسجلات أسماء ورتب الانكشاريين، وكان عمه أمين بيت المال(6) .

انتهى حمدان خوجة من مرحلة التعليم الأولى وهو في سن الحادية عشرة، ثم باشرها بالتعليم الثانوي تحت إشراف والده حيث تمكن من علم الأصول والتاريخ والمنطق والفلسفة(7)، كما كان ملما بالتاريخ الجزائري وجغرافيتها وكذا اللغات كالتركية والفرنسية والانجليزية(8) . كما ساعدته رحلاته المتعددة إلى البلاد الإسلامية والأوروبية ومنها مصر وتونس وليبيا وإيطاليا وفرنسا واسبانيا وانجلترا في صقل شخصيته وفي تكوينه الأكاديمي والسياسي فيقول عن نفسه: "عشت في أوروبا وتذوقت ثمرة مدنيتها وأنا واحد من المعجبين بالسياسة المتبعة في كثير من الحكومات الأوروبية"(9) .

إن هذه الثقافة التي سمحت لحمدان خوجة بالاطلاع على ما يجرى في أوروبا والعالم الإسلامي والإلمام بأحوالهما والاتصال بشعوبهما ومعرفة خبايا الأنظمة القائمة أدّت إلى تأثره بما رآه من تخلّف في العالم الإسلامي؛ إلا أنه توسّم أن يرى يوما العالم الإسلامي متفتحا متحضرا رافعا لشعار العلم والمعرفة.

2- النشاط السياسي لحمدان خوجة قبل الغزو الفرنسي :

إن المتتبع لسيرة حمدان خوجة يلاحظ أن الرجل كان ميالا للعمل السياسي، حيث تقلد بمجرد وفاة والده منصبه في الدولة وفي التعليم وأصبح من مستشاري

الداي حسين وممن يشاركون في مجلس الديوان(10)، وممن انتخب مندوبا مفوضا لأعيان الجزائر الذين طلبوا بحقوق الجزائر(11) . و ما يدل على ذلك أن الداي حسين قام باستدعاء خوجة بعد يومين من معركة سطا والي مستفسرا وطالبا النصح فما كان جواب حمدان خوجة إلا قوله: "إن الحرب لخطيرة جدا وإن المعركة قد كانت أخطر بكثير ولكن لا ينبغي للرئيس مهما كانت الظروف أن ييأس من روح الله لأن في يأسه تكون الخسارة التامة والانهزام العميم"(12) .

ويؤكد حمدان خوجة علاقته المميزة مع الداي حسين بقوله: "ينتمي هذا الرجل الأمين الصدوق إلى عائلة نبيلة وإنه يتمتع بمعارف واسعة وقد خدم الآيالة أكثر من ثلاثين سنة، ولما كنت أعرف الناس بأصله وبأخلاقه يمكن أن أقول بأنه من أطيب أرومة الاعتراك القدامى أي انه شهم عالي الهمة فلا أظن أحدا يستطيع أن يتهمه بالشراهة أو الجشع، ولا يمكن لأية دولة أن تتهم حسين باشا بنقض العهود المبرمة"(13) .

و كان حمدان خوجة من رسل الداي حسين إلى إبراهيم آغا ليشجعه على مواصلة الجهاد ضد الكفار فكان الفشل في المرة الأولى واستطاع في المرة الثانية إقناع إبراهيم آغا بالمجابهة ورد العدوان والدفاع عن حوزة البلاد(14) . و يؤكد جورج ايفر هذه العلاقة حيث كان خوجة ممن حملهم الداي على الاعتذار من فرنسا بواسطة سفير الجزائر العام 1927 عندما أطلقت المدفعية الجزائرية نيرانها على مركب لابروفانس الفرنسي(15) .

كما لعب حمدان خوجة دورا مهما في مجلس أعيان البلد عند نزول الجيش الفرنسي بسيدي فرج يوم 14 جوان 1830 وكان ممن استشاره الداي وكان من مؤيدي القول: "إننا نقاتل حتى آخر شخص منا، بيد إذا كان سموكم يفضل وسيلة أخرى فلكم الكلمة العليا والأمر المطاع فيما ترونه ملائما ونحن تحت أمركم وعند إرادتكم "(16) . فالملاحظ أن حمدان خوجة كان ممن دافع على فكرة المقاومة ولكن المقاومة المنظمة لأنه في الجهة المقابلة هناك جيش منظم وكبير وهو ما نجده في قوله: "إذا وضعنا كل أملنا في إقامة التراسين والحصون، فإننا لن ننتصر لأن نيران المراكب الفرنسية ستقضي على هذه المنجزات المقامة بسرعة"(17) .

و رغم كل هذا فإن الأعيان في آخر المطاف أخذوا بمبدأ إبرام معاهدة الاستسلام يوم 5 جويلية 1830 متأثرين بوعود السلطات الفرنسية وهذا ما نجده عند حمدان خوجة بقوله: "في اعتقادنا أن دولة مثل فرنسا ذات سيادة واحترام، لا تسمح لها مكانتها بمخالفة هذه الشروط أو خرق المعاهدة*، بل سوف نصبح تحت جناحها نتمتع بالحرية وننعم بالعدالة والإنصاف، ليحكمنا فريد أو عمر فالمهم أن تكون شؤوننا مدبرة على أحسن ما يرام.

ثم إن الفرنسيين بشر مثلنا، وإذا كانت المدنية قد أسست على حقوق الإنسان إذن فلا شيء يخيفنا من حكومة متمدنة، كما أن فرنسا قد وعدتنا باحترام ديننا وعوائدنا وأرزاقنا وإذا لم تفعل أصبحت حياتنا في خطر"(18) .

و الملاحظ كما يقول الأستاذ سعد الله أن حمدان خوجة كان ضحية من الضحايا الذين وضعوا الثقة في وعود فرنسا وظنوا أنها ستفي بالتزاماتها ولكنهم شيئا فشيئا بدؤوا يتبينون خطأهم حيث ثبت لهم أن الفرنسيين قد جاءوا ليبقوا، وهنا لم يسع خوجة إلا أن يعلن معارضته المفتوحة للاحتلال(19)، لذا فحمدان خوجة –كما يقول عبد الملك مرتاض– "شخصية وطنية سياسية كبيرة. . وهو جزائري من أصل تركي ولكن لا أحد يشكك في وطنيته وحبه للجزائر التي دافع عنها وعن أهاليها في كثير من المواقف والمواطن في الثلاث سنوات التي تلت الاحتلال في الجزائر وفي باريس"(20) .

3– النشاط السياسي لحمدان خوجة بعد الاحتلال :

عند استيلاء فرنسا على الجزائر كان الطابع السائد أن فرنسا جاءت لتأديب الداي ثم ما تنفك تعود أدراجها فكان أن مالت بعض الفئات الاجتماعية وخاصة من النخبة ومن أهم العناصر حمدان خوجة وأحمد بوضربة، ومحمود بن أمين السكة(21)، لكن تبين بعد وقت قصير أن العدو جاء ليبقى فكان لزاما تنظيم العمل على أسس تسمح بمواجهة القوة الجديدة ومن هنا ظهرت لجنة الحضر(22) التي أيقن أعضاؤها أن هذا العدو جاء بنية البقاء وأن أموالهم وأراضيهم قد صودرت ومساجدهم هدمت أو حولت إلى كنائس فظهر على الساحة الوطنية ثلاثة تيارات(23):

– التيار الوطني والذي كان يعمل من اجل تحرير البلاد .
– التيار العثماني والذي كان أنصاره يسعون إلى البقاء على ولايتهم للخلافة العثمانية.
– التيار الفرنسي والذي ارتبطت مصالحه بالمصالح الفرنسية.
كما قدمت لجنة الحضر بعض المطالب للسلطات الفرنسية وإن كانت أعيان تكاد تكون نفسها ما جاء في وثيقة الاستسلام وهي:
1- احترام الدين الإسلامي ومؤسساته وأوقافه، وإنشاء لجنة من المسلمين لإدارة شؤونه.
2- إعادة الأملاك الخاصة التي استولى عليها الجيش الأجنبي ودفع الكراء وتعويض أصحابها .
3- تسيير شؤون المدينة من قبل الحضر وتقديمهم على غيرهم باعتبارهم القوة الكاثرة والأصلية والغنية.
4- تخفيض نشاط اليهود في الجزائر وطرد الأتراك الباقين منها .
5- فتح مجالات العمل والتعليم والصحافة أمام الجزائريين(24) .
ورغم هذا فإن السلطات الفرنسية تعنتت وتمادت في عملية السلب والاستيلاء، فسرعان ما اكتشفت اللجنة أنها كانت مخطئة في اعتقادها أن فرنسا ستعوض الحكم التركي بحكم محلي تكون هي على رأسه.
وبالعودة إلى حمدان خوجة الملاحظ أن مواقفه كان يشوبها الكثير من الغموض عند بداية الاحتلال، فشارل أندري جوليان يعتبره الشخصية الأكثر تعاونا مع الفرنسيين(25)، ويقول عنها الأستاذ مرتاض " تظل إشكالية في سلوكها بحيث يعروها شيء كثير أو قليل من الغموض"(26) . ويعدّه الأستاذ سعد الله زعيما للحركة الوطنية التي ظهرت في الجزائر(27) .

أ/ علاقة حمدان خوجة بالقادة العسكريين الفرنسيين:

قلنا سلفا أن حمدان خوجة قد وقع في فخ المعاهدة الفرنسية لاعتقاده بان فرنسا الثورة والحرية ما تلبث أن تتخلى عن الجزائر، لذا كانت العلاقات بين القادة الذين حكموا الجزائر في بداية الاحتلال والنخبة علاقة ميزها التعاون. فحمدان كان يرى في البداية أنه: "لا فرق أن يحكمنا زيد أو يرأسنا عمر، وإنما نطالب من

يحكمنا أو يرأسنا بالعدالة الاجتماعية والإنصاف التام. إن الأسس التي بنيت عليها القوانين الفرنسية تقتضي عدم مس ديننا وعقائدنا لأن الدين أمر عقلي والأمور العقلية لا محاربة فيها . إن الفرنسيين هم بشر مثلنا وقد جمعت بيننا وبينهم الأخوة الإنسانية بالإضافة إلى ذلك فإن الحضارة والتمدن مستمدان من قوانين الإنسان. إذن فكيف نخاف من أمة لها باع طويل في الحضارة الإنسانية وقدم راسخ في التمدن البشري"(28) .

و نلاحظ هنا أن حمدان خوجة تميزت مواقفه في البداية بنوع من الغموض، أو يمكن أن نقول وقع في فخ معاهدة الاستسلام مما أدى به إلى التعاون مع القادة الفرنسيين. فنجد القائد العام دوبورمون* قام بإسناد بعض الوظائف لبعض الأعيان ومنهم حمدان خوجة الذي عين على رأس المجلس البلدي للجزائر(29) وبالتالي كان يعتبر همزة وصل بينه وبين الأهالي.

بعده جاء كلوزيل** وبقي حمدان خوجة في مكانه لفترة وجيزة حيث توترت العلاقات بينهما ويعود سبب التوتر في كون كلوزيل قام بأعمال منافية للمعاهدة وللأعراف الإنسانية ومن بينها استحواذه على المساجد وتحويلها إلى كنائس واستيلائه على الأوقاف الإسلامية(30) .

بعد كلوزيل تولى القيادة العامة "بيرتزين"* والذي حاول اتباع سياسة المهادنة مع الشعب ومنهم حمدان خوجة فكانت العلاقات بينهما حميمية وكان حمدان يمثل الواسطة بين الشعب وبين القائد العام .

بعده تولى القيادة "الدوق دو روفيقو"** فامتازت في عهده بالتوسع المسيحي على حساب الثوابت الإسلامية، غيرأنه استطاع استمالة حمدان خوجة وتكليفه بالعديد من المهمات منها التفاوض مع الأغا محي الدين مرابط القليعة(31)، وكذلك التفاوض مع الحاج أحمد باي(32) والتي يعتبرها "دو روفيقو" مكسبا شخصيا حيث يقول: "إن حمدان هو الرجل الوحيد المعول عليه في هذا القطر من حيث التفكير السليم والنزاهة الحقيقية وهذه الأوصاف قلما توجد في أحد من جنس البشر، وها أنا قد جعلته في مرتبة أكبر لأنني اتخذته مفوضا ومندوبا وجعلت فيه كل ثقتي"(33) .

إن هذه السياسة التي اتبعها "دو روفيقو" ما هي إلا وسيلة كان يهدف من خلالها استمالة النخبة المثقفة لكي يتسنى له متابعة الزحف واحتلال أراض جديدة على حساب الشعب لأنه في آخر المطاف هو من نفاه عن أرضه إلى فرنسا(34) .

ب/ علاقة حمدان خوجة برواد المقاومة المسلحة :

لم تكن علاقة حمدان خوجة بالفرنسيين تخرج عن نطاق المقاومة ؛ذلك أنها محاولة منه للوصول إلى خدمة الشعب بالدرجة الأولى، خاصة أن لحمدان علاقات برواد المقاومة المسلحة في الغرب "الأمير عبد القادر" وفي الشرق "أحمد باي" .

I) علاقة حمدان خوجة بالأمير عبد القادر :

بعد دخول الفرنسيين أرض الجزائر رفع الأمير عبد القادر لواء الجهاد ضدهم في منطقة الغرب الجزائري واستطاع في برهة من الوقت من تنظيم أمور الدولة، فأسس مجلسا للوزراء ومجلسا للشورى، ووضع قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية ، وقسم البلاد إلى ولايات ونصب على رأس كل ولاية خليفة(35) . كما نظم الإدارة، وبدأ ببناء جيش قوي أساسه الولاء للوطن وذلك بتشجيع الانخراط فيه، كما أعطى لدولته أبعادا دولية(36) .

تعود العلاقة بين حمدان خوجة والأمير عبد القادر إلى مراسلات بين حمدان والأمير بعد مطالبة هذا الأخير المساعدة من الدولة العثمانية لمواصلة الجهاد ضد الكفار الفرنسيس. فالأمير عبد القادر في مراسلته يوم 10 ديسمبر 1837 يمدح فيها حمدان بقوله: "لقد بزغ من مطلع ودكم مشتري المحبة أن كاتبنا آل عثمان مع أننا لم تقع منا قط كتابة خوفا من عدم القبول أو عدم الإجابة لكن علمنا أن تلك إشارة الفعل من لطائف السيد حمدان ولد الخوجة عثمان فاعتمدنا إشارتك بهذا الرأي الرشيد واستعطفنا سيدنا ومولانا السلطان عبد المجيد وعرضنا على حضرته العليا حالنا"(37) .

ويلاحظ هنا أن حمدان كان يحث الأمير على طلب مساعدة الباب العالي لإدراكه أن وسائل المقاومة عند الأمير قليلة ويمكن أن تستنزف ويؤدي ذلك إلى ضياع المقاومة.

2) علاقة حمدان خوجة بأحمد باي*:

يعتبر أحمد باي من أهم الشخصيات الجزائرية التي قاومت الاستعمار حيث يقول عنه العربي الزبيري "من المع وجوه المقاومة في الجزائر ومن اكبر قادتها الذين دوخوا فرنسا"(38) . ويقول عنه الأستاذ سعد الله "قد اعترف له أعداؤه ومعاصروه بالحنكة السياسية والمواقف البطولية، وغيرته الدينية، و كرهه الشديد للأجانب"(39) .

والعلاقة بين أحمد باي وحمدان خوجة في البداية علاقة مصاهرة فأخت حمدان هي زوجة أحمد باي وقد تمخض عن هذه المصاهرة ثقة الحاج أحمد باي بحمدان خوجة. كما أن "دو روفيقو" اختار حمدان للتوسط بينه وبين الباي وذلك نزولا عند طلب هذا الأخير والتي قال فيها: "أرسل لي من الجزائر أحد أصدقائي من أعيان الجزائر طلب مني الصلح" وعليه قام حمدان بزيارتين الأولى في أوت 1932 والثانية في أكتوبر 1832(40) .

والملاحظ أن وساطة حمدان خوجة باءت بالفشل لكون الرسالة التي بعث بها "دو برمون" تحمل في طياتها أسلوبا يدل على وقاحة فرنسا فهو يقول "استسلموا لفرنسا التي وهبها الإله سلطان إفريقيا . تدفعون ثلاثة ملايين من الفرنكات كتعويضات للحرب، وللحملات التي تتسببون فيها يوميا . فتفاهموا في كل شيء مع رسولي سي حمدان، إنني وكلت إليه التفاوض معكم وفقا لتعليماتي"(41) .

كما طالبت فرنسا ببعض الشروط منها :

1/ أن يسمح لها الباي بأن تجعل ثكنتين لجنودها إحداها بقصبة قسنطينة والثانية بقصبة عنابة .

2/ أن يبقى ميناء عنابة تحت تصرفها وسلطتها المطلقة.

فكان رد الداي: "من الأمة المحافظة على شرفها وبلدها إلى العسكر الفرنسي المعتدي على حقوق غيره. قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها، نعم إن مركزنا أمسى في خطر عظيم، ولكن استيلائكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العرب الذين لا يهابون الموت موقوف على قتل آخر رجل واحد منهم. واعلموا أن الموت عندنا تحت أسوار بلدتنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا"(42) .

كما قام حمدان خوجة بمراسلة أحمد باي بتاريخ 19 فيفري 1840 يحثه فيها توحيد جهوده مع الأمير عبد القادر لمواجهة الفرنسيين والتي يقول فيها: "الآن وقد تحولت محبة عبد القادر للفرنساوية إلى المخاصمة واتجاهه إلى الحرب والعداوة، فسلط عليه صناديد العرب، وأوقعوا بهم وكسروا شوكة الكفار وأوهنوا قوتهم ولله الحمد. فنرجو أن يوافق ذلك مقترحكم ويكون لكم فيه راحة، بل غنيمة إذ يمكنكم والحالة هذه أن تسلطوا على الكفار بمن معكم من شجعان العرب وأن تقعدوا لهم كل مرصد ونحن أحضرنا ذلك لكم"(43).

فالعلاقة إذا هي علاقة ولاء لما هو جزائري، وهذه الصفة هي التي جعلت حمدان يواصل كفاحه من أجل فضح الاستعمار وأساليبه، ويبين مدى بشاعته سنوات قليلة من دخوله أرض الجزائر. وهذه الفضائح جنت على حمدان خوجة بالنفي إالى فرنسا ثم اسطنبول لكن دون أن تثني عزيمته في الدفاع عن بلده الجزائر.

4- النشاط السياسي لحمدان خوجة في المنفى.

إن المتتبع لنشاط حمدان خوجة يلاحظ أن الرجل ما فتئ يقاوم الاحتلال الفرنسي بالكتابة والفكر والرأي(44)، حيث تعد مذكرته التي أرسلها يوم 3 جوان 1833 إلى وزير الحربية الفرنسي الماريشال "سولت" والتي ضمنها جرائم الجيوش الفرنسية والتي شملت على ثماني عشر نقطة (18) والتي تدعو إلى تعيين لجنة تحقيق لتقصي الحقائق حول ما اقترفته أيادي الجيش الفرنسي في الجزائر.

والمتتبع لمذكرة حمدان يلاحظ أن هذا الأخير كان يريد بالدرجة الأولى فضح جرائم الاستعمار، لأنه من جهة يستعطف اللجنة باسم المحبة والإنسانية والعدالة (45)، حيث يقول: "إن الإنسان لينتظر من هذه اللجنة انتصار العدل والإنسانية"(46)، ومن جهة ثانية يبين جرائمهم فيقول: "حدث أكثر من مرة أن ذبح الرضع على صدور أمهاتهم وأحرقت المساكن وسلبت المواشي، وامتلأت أسواقنا بالأمتعة المنهوبة، ولقد شوهدت في هذه الأسواق أساور ما تزال على أزندتها الدامية، وقرط مخضبة بدماء الآذان التي انتزعت منها"(47).

كما كان خوجة يعتقد أن الأمة الجزائرية والأمة الفرنسية لا يمكن أن يتعايشا في الجزائر لأنه لا يوجد بينهما أي تشابه فيقول: "إن حاجزا قد أقيم بين الشعبين اللذين لا يمكن أن يتكلما نفس اللغة، ولا يعتنقا نفس الدين ولا يلبسا نفس اللباس، ولا يمارس نفس طريقة الحياة، ولا يمكن اليوم استرجاع الروح التي لم تزودها سنوات العناء إلا صلابة قوية"(48) .

كما كان مطلب خوجة –وإن بطريقة ضمنية– استقلال الجزائر بمساعدة فرنسا تصورا منه أنها جاءت لتطرد العثمانيين ثم ترحل عن الجزائر، يقول: "إني حين أفكر بأن اليونانيين مدينون باستقلالهم إلى الفرنسيين، وأن البلجيكيين مدينون بحريتهم إليهم. . . إن الجزائريين لا يستحقون أن يرمى بهم خارج المجموعة، فهم جزء من العائلة الإنسانية. فهل ستشفقون على حالتهم؟ ليس هناك أي حل سوى تغيير الوضع لاستعادة النظام وميلاد ثقة جديدة في الجزائر"(49) . ويخاطبهم بقوله: "فإذا كان حب وطنكم راسخا في قلوبكم، فغير ممكن عدم استجابتكم لمطالبة حقوقنا . وكيف لا ونحن مثلكم في حب وطننا"(50) .

لقد جاءت قرارات هذه اللجنة مخيبة للآمال وأبعدت عنها المسؤولية في البحث في القضايا الناجمة عن مظالم الجيش الفرنسي، وهذا ما يؤكده الأستاذ مرتاض بقوله: "كيف يمكن أن تحقق لجنة في جرائم حرب الجيش الفرنسي. . إن تشكيل هذه اللجنة بمطالبة ساذجة من بعض الأعيان الجزائريين لأن حسن النية مرفوض في العلاقات السياسية"(51) .

كما كانت اللجنة على علم بالجرائم المقترفة في حق الشعب الجزائري، فكانت جملة نتائجها أنه: "قد أرسل إلى الموت لمجرد الشبهة ودون محاكمة بأناس ظلت إدانتهم منذ ذلك الحين أكثر من مشكوك فيها. لقد ذبح أناس يحملون جوازات مرور، وذبح لمجرد الاشتباه أقواما كاملة تبين فيما بعد أنها بريئة. وحوكم أشخاص اشتهروا بأنهم قديسون على درجة كافية من الشجاعة لتدخلهم لصالح مواطنيهم. . ."(52) . هذه جرائم فرنسا، وما تبعها من جرائم اللجنة الإفريقية ؟

نتج عن هذا مراسلة حمدان للملك "لويس فليب" بتاريخ 16 سبتمبر 1833 والتي يلح فيها على أمرين هما الحرية والاستقلال والتمتع بالحقوق التي يتمتع بها

الأوروبيون(53)، لكن الرد جاء يوم 3 أكتوبر 1833 أشعرت خلالها أن عريضته قد أحيلت على وزارة الحربية قصد دراستها، وهذا يعني إحالتها على الأرشيف.

ومن أهم الملاحظات أن حمدان خوجة رغم مراسلاته كان لا يثق في السلطات الفرنسية وهو ما يبينه في مراسلة لصديقه محمود بن أمين السكة بقوله: " . . .وأنا يا أخي وحدي تحت أيدي الكفار، وأنا في بلادهم اقصر فيما اقدر عليه بلساني وقلمي ولو أن الكفار يعلمون شطر ما فعلت من تحريرات وتأليف ومراسلات مع الأجناس وغير ذلك مما لا اقدر على تحريره لأكلوا لحمي وأوقعوا بي والحمد لله سترني الله وبعد كل مقال أنا كتبت وبينت وانتم يحرم عليكم السكوت أنا قد جاهدت بقلمي والرعايا بسيوفهم، فجاهدوا بألسنتكم. اعلموا سلطاننا بحال الإسلام والمسلمين، الغياث الغياث الفرنسيس لا يخرج من الجزائر إلا بالقوة السلطانية وتعديه كل يوم يزيد . . . "(54).

ومن أدلة ذلك كذلك مراسلة حمدان خوجة للسلطان العثماني محمود الثاني في ماي 1833 قبل أن يهاجر إلى اسطنبول(55). وأخرى يوم 16 أوت 1833 يستلهم منه الوقوف إلى جانب الجزائر في محنتها ضد فرنسا.

5- صور المقاومة السياسية من خلال " المرآة".

يعتبر كتاب "المرآة" من الوثائق التاريخية التي فضحت جرائم الاستعمار في الجزائر، فهو وثيقة تاريخية سياسية شاهدة على ما كانت عليه الجزائر قبل الاحتلال وبعده ببضع سنين. فيصفه محمد بن عبد الكريم بأنه: "مكتظ بالأدلة القاطعة والحجج الدامغة والبراهين الساطعة والوثائق الأمينة التي تبرهن على أن فرنسا قد أظهرت عجزها على أن تمنح الجزائر ثمرة مدنيتها . . . وبه شعور إنساني وإيمان راسخ وإخلاص وطني"(56).

ويصنفه الأستاذ مرتاض في "جنس أدب المذكرات في أطراف منه، وفي الاقتصاد والسياسة في أطراف، وفي التاريخ والفكر في أطراف أخرى، وهو في كل الأحوال يعالج أطوارا من المقاومة السياسية التي نهض بها أعيان مدينة الجزائر ضد الفرنسيين في الايام الأولى من الاحتلال ومنهم حمدان خوجة"(57).

فهو كتاب شامل جامع لما كانت عليه الجزائر ولما وصلت إليه بكل الحقائق التي يحتاجها أي إنسان. أما خوجة فيلخّص الدافع إلى كتابة المرآة في قوله: "أن أنباء الآلام التي يقاسيها أبناء وطني لتصك مسامعي من حين إلى آخر وهي التي دفعت بي أن أجدد شجاعة بعض التعساء منهم، وأنهض بمعنوياتهم الخامدة"(58).

إذا، فالدافع من وضع هذا الكتاب هو اطلاع الرأي العام الدولي عما يجرى في الجزائر مبينا ما كانت عليه وما آلت إليه حتى وصفه عبد الرحمان الجيلالي بأنه أول بيان سياسي ضد السياسة الفرنسية في الجزائر(59). تبدو صور المقاومة في كتاب "المرآة" للوهلة الأولى في المقارنة التي قدمها بين العهد العثماني وعهد الغزو الفرنسي للجزائر. فالجزائر رغم العيوب التي كانت بها إلا أنها كانت دولة ذات سيادة(60) ولم تشهد على مر ثلاثة قرون أيا من أنواع الإبادة، "وعلى إثر الغزو الفرنسي تعرضت القبائل أو البدو إلى جميع أنواع الاضطهاد فصاروا ولا زالوا يتمنون الحكم التركي الذي كان يمكنهم الاستفادة من منافع كثيرة حرموا منها الآن..."(61). وهذا ما يسميه بن عبد الكريم أنفة الجزائريين من أن يحكمهم جنس أجنبي، ويسوسهم بحنكة سياسته أو يقهرهم بقوة سلاحه(62).

فالحكم الذي جاءت به فرنسا جاء من أجل القضاء على مقومات الشعب وخصوصيته لذلك كانت مقاومته عبر مراحل تواجده في الجزائر. الصورة الثانية هي عدد سكان الجزائر، فلقد حددها حمدان بعشرة ملايين نسمة، منقسمين إلى عرب وبربر وأندلسيون وكراغلة، مصنفين إلى بدو وحضر، ومع بدء عملية الغزو تغيرت المعادلة وبدأت معها عملية الإبادة* ونزع الملكية والاستيلاء على الأراضي والتهجير القصري إلى الصحاري وأصبح سكان المدن من الأوروبيين وهنا يقول حمدان خوجة: "وقعت حوادث مؤسفة على أيدي زبانية جنود الفرنسيين وانتشارها في أنحاء مختلفة من البلاد الجزائرية بصفة مؤلمة ومحزنة، قد أدت بالشعب الجزائري إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الفرنسيين لم يرتكبوا هذه الأعمال تجاههم إلا بدافع الانتقام العنصري والحقد الديني"(63).

كما يحدد حمدان خوجة صورة أخرى وهي اختلاف الشعبين الجزائري والفرنسي في الجنس والدين والعادات، وهذا الاختلاف يؤدي إلى مقاومة الدخيل الجديد.

فنلاحظ أن شكل المقاومة يأخذ أبعادا دينية على اعتبار رفع الصليب في الحملة الفرنسية على الجزائر محاربة للهلال. و بعده يعطي حمدان الحل للمعضلة الجزائرية والتي لا تخرج عن أمرين اثنين:

الأول: أن تدفع بالشعب الجزائري البائس إلى أحضان الصحاري، أي نفيه إلى قفار الصحراء ليخلوا لها الجو ويتسع لها الميدان تفعل ما تشاء. إلا أن هذه الطريقة لا تسمح بها القوانين الإنسانية ولا تتفق مع مبادئ الكرامة التي تتشبث بها الأمة الفرنسية.

الثاني: أن تختار أميرا مسلما معروفا بحنكته السياسية ورأيه الحصيف وجدارته بما يسند إليه، وهو يخاطبها بقوله: "ومن الأحسن لفرنسا أن تخلي البلاد من جنودها وتترك الحكم لسكانها . . . خصوصا نحن في عصر لا يسمح لأية دولة من الدول أن تستعمر أي شعب من الشعوب"(64) .

فنلاحظ أن حمدان من خلال هذا قد شخص الداء وأعطى الدواء ليبين أن فرص حكم الجزائريين لأنفسهم واردة لكن برحيل فرنسا .

وخلاصة القول أن حمدان خوجة ترك لنا من خلال كتاباته صورا حقيقية عن واقع عاشته الجزائر مع الاحتلال، فقد كان حقا – كما يقول مرتاض – شخصية نزيهة وصريحة وشجاعة سجلت كل ما كانت تراه أو تسمعه أو تعلمه من الأحداث(65) .

الهوامش:

1– حمدان بن عثمان خوجة. المرآة. تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري. الجزائر: ش.و.ن.ت. 1982. ص29.

2– حميدة عميراوي. "حمدان خوجة حياته و آثاره" (مجلة الثقافة) لعدد 80. ديسمبر1985، ص98.

3– محمد العربي الزبيري. "حمدان خوجة، أصله و نشأته و ثقافته" (المجاهد الأسبوعي) . العدد 632. ديسمبر 1972. ص24.

*– كان سكان الجزائر في العهد العثماني منقسمين إلى ثلاث طبقات: جزائري ولد البلد . كورغلي و براني. أنظر: عبد الرحمان الجيلالي. تاريخ الجزائر العام.

الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.ج1982. 3. ص477. و يقسمها الأستاذ سعد الله إلى سكان أصليون، طبقة تركية، الكراغلة، و المهاجرون الأندلسيون. سعدالله .تاريخ الجزائر الثقافي ج1 بيروت:دار الغرب الإسلامي. ص258.

4- حمدان بن عثمان خوجة. المرآة. تقديم و تعريب محمد العربي الزبيري. الجزائر: ش.و.ن.ت. ط2. 1982 ، ص11 .

5- يجدر الإشارة هنا أن التعليم في العهد العثماني كان متاحا لكل أفراد الشعب دون استثناء .

6- عبد الحميد زوزو. "حمدان خوجة و منهجه في كتابة التاريخ" . (مجلة الأصالة) العدد الرابع، أكتوبر 1971. ص88.

7- حمدان خوجة. المرآة. تقديم محمد العربي الزبيري. مرجع سابق، ص13.

8- نفسه، ص14.

9- Yver Georges. «Si Hamdane ben othman khodja ». Revue Africaine. N°1913. P97.

10- عمار بوحوش. التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962. بيروت: دار الغرب الإسلامي . 1997. ص91.

11- محمد بن عبد الكريم. حمدان بن عثمان خوجة الجزائري و مذكراته. الجزائر: ش.و.ن.ت. 1972. ص114.

12- نفسه، ص 152.

13- حمدان خوجة. المرآة. تعريب محمد بن عبد الكريم. بيروت: مكتبة الحياة، 1972، ص143.

14- بن عبد الكريم. حمدان بن عثمان خوجة. مرجع سابق، 152.

15- Yever. Op. Cit. P88.

16- حمدان خوجة. المرآة. تعريب محمد بن عبد الكريم. مرجع سابق، ص166.

17- بوحوش ، المرجع السابق ، ص 97.

*- أنظر نص المعاهدة في كتاب أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. ج2. ص423.

18- خوجة . المرآة. ت. بن عبد الكريم. 163.

19- أبو القاسم سعد الله. أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر. ج1. بيروت: دار الغرب الإسلامي 1990. ص72.
20- د. عبد الملك مرتاض. أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830/1962. ج2. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954. ص16.
21- أنظر أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. بيروت: دار الغرب الإسلامي 1992. ج1. ص111.
22- لجنة الحضر: هي لجنة مكونة من حضر الجزائر وهم من الطبقة الغنية، وسياسيا كانوا في المرتبة الثالثة بعد الأتراك والكراغلة ومن أهم الشخصيات حمدان خوجة، أحمد بوضربة، المفتي ابن العنابي. أنظر سعد الله. محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال. الجزائر: ش.و.ن.ت. 1976. ص65.
23- سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. ج1. مرجع سابق، ص ص109-110.

24- نفسه ، ص ص 106/107.

25- Julien Charles André. Histoire de l'Algérie Contemporaine. Paris. P.U.F 1979. P73.

26- مرتاض. المرجع السابق، ص 16.
27- سعد الله. الحركة الوطنية الجزائرية. ج2. ص37.
28- بن عبد الكريم. مرجع سابق، 154.
*- "دو برمون" قائد الحملة الفرنسية على الجزائر. أنظر سعد الله. الحركة الوطنية. ج1. ص26.
29- سعد الله. نفسه، ص ص44-45.
**- الجنرال كلوزيل عين قائدا عاما في 2 سبتمبر 1830، امتاز عهده بالغطرسة والعنف ضد الجزائريين. أنظر سعد الله. نفس المرجع السابق. ص36.
30- أبو القاسم سعد الله. محاضرات في تاريخ الجزائر. مرجع سابق. ص81.
*- "برتزين (1775-1847) من ضباط الحملة الفرنسية على الجزائر تولى القيادة العامة من فيفري حتى ديسمبر 1831. يصفه الأستاذ سعد الله بأنه لا يختلف عن من سبقوه إلى الولاية العامة. أنظر سعد الله. المرجع السابق، ص46.

**- الدوق دي روفيقو (1774-1833) تولى القيادة العامة في ديسمبر 1831 إلى غاية مارس 1833، و كان يمتاز بكرهه لأهل الجزائر و بسلوكه البوليسي. سعد الله. نفسه، ص49.

31- سعد الله. المرجع السابق، ص82.

32- محمد بن عبد الكريم. مرجع سابق، ص175.

33- عبد الرحمان الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. ج4. ص34.

34- محمد العربي الزبيري. مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة. الجزائر: ش.و.ن.ت. 1981. ص142.

35- محمد الطيب العلوي. مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954. الجزائر. منشورات وزارة المجاهدين. ص45.

36- حميدة عميراوي. دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827/1840. مذكرة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1983. ص160.

37- نفسه، ص119.

*- الحاج أحمد باي (1784-1851) ولد في قسنطينة من عائلة كروغلية. باي قسنطينة وقائد المقاومة في الشرق والاوراس و الصحراء.

38- العلوي. مرجع سابق، ص66.

39- محمد بن عبد الكريم. حمدان بن عثمان خوجة و مذكراته. مرجع سابق، ص178.

40 نفسه، ص166.

41- نقلا عن مرتاض. المرجع السابق، 26.

42- العلوي. مرجع سابق، ص ص69-70.

43- عميراوي. مرجع سابق، ص126.

44- مرتاض. مرجع سابق، ص20.

45- عبد الحميد زوزو. حمدان خوجة و منهجه في كتابة التاريخ. مرجع سابق. ص91.

46- سعد الله. الحركة الوطنية. ج2. مرجع سابق، ص424.

47- مذكرة حمدان خوجة إلى اللجنة الإفريقية. انظر مرتاض، ص22.

48- سعد الله. الحركة الوطنية. المرجع السابق، ص425.
49- نفسه، ص425.
50- محمد بن عبد الكريم. حمدان خوجة و مذكراته. مرجع سابق. ص205.
51- مرتاض. المرجع السابق، ص22.
52- مجموعة مؤلفين. الكتاب الاسود للرأسمالية. دمشق. دار الطليعة الجديدة. د.ت. 205/206.
53- سعد الله. محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. مرجع سابق، ص82.
54- عبد المجيد التميمي. بحوث ووثائق. مرجع سابق، ص164.
55- المرآة. تقديم الزبيري. ص43.
56- بن عبد الكريم. مرجع سابق، ص125.
57- مرتاض. مرجع سابق، ص17.
58- المرآة. تقيم محمد بن عبد الكريم. مرجع سابق، ص11.
59- عبد الرحمان الجيلالي. مرجع سابق، ص40.
60- السيادة هنا تعني الحدود و العملة و العلم و اتخاذ القرار السياسي دون تدخل أجنبي، و هذا ما كانت عليه الجزائر قبل الغزو الفرنسي.
61- المرآة. الزبيري، ص105 .
62- بن عبد الكريم. حمدان خوجة. مرجع سابق، ص199.
*- يقول الأستاذ مرتاض أن الكاتب استعمل لفظ إبادة ولم يستعمل لفظا آخر وهو دليل على الإجرام الذي اقترفته فرنسا في حق الشعب الجزائري. مرتاض: مرجع سابق، ص34.
63- بن عبد الكريم. حمدان خوجة، مرجع سابق، ص ص199-200.
*- يبدو أن حمدان خوجة استعمل هذا الأسلوب لاستعطاف الفرنسيين لأن الكرامة الإنسانية لا تأتي أبدا مع الغزو.
64- بن عبد الكريم. مرجع سابق، ص200.
65- مرتاض. مرجع سابق، ص47.